الغـرب

عدو العالم رقم ١

ترجمة عربية كاملة بناء على اتفاق قانوني ملزم للطرفين مع ناشر الأصل الأجنبي للكتاب.

Jean-François Colosimo

Occident Ennemi Mondial N° 1

© Éditions Albin Michel, 2024

الغـرب

عدو العالم رقم ١

تأليف

جان فرانسوا كولوزيمو

ترجمة

عبد الرحمن حسين

محمد جلال

تحرير وتقديم

عماد العادلي

الغـرب

عدو العالم رقم ١

تأليف: جان فرانسوا كولوزيمو

ترجمة: عبد الرحمن حسين ومحمد جلال

تحرير وتقديم: عماد العادلي

الطبعة الأولى – القاهرة 2026

رقم الإيداع: 32776/ 2025

الترقيم الدولي: ISBN: 978 - 977 - 8836 - 72 - 1

المقاس: 14.5 × 21.5.

عدد الصفحات: 336.

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر مكتبة البحر الأحمر».

مكتبة البحر الأحمر

42 ش ماري جرجس– مجمع الأديان – المنطقة السياحية – مصر القديمة – القاهرة.

هاتف: 0020227412286

محمول: 00201144418191

www.redseabookstores.com

E-mail:info@redseabookstores.com

السلسلة:

سلسلة تُعنَى بترجمة دراسات رصينة وجادة في حقول شتى من العلوم الإنسانية، مثل التربية وعلم النفس وعلوم الاجتماع والسياسة والجغرافيا والتاريخ والاقتصاد.

تقوم الدار باختيار الجديد الصادر عن كبرى دور النشر العالمية المتخصصة التي نعرف عنها شروطها التحكيمية المدققة في النشر والدقة العلمية الممتازة لمستشاريها من أساتذة الجامعات في أرقى جامعات العالم.

نرحب بترشيحات الباحثين لكتب أو دراسات جديدة ظهرت في حقل الإنسانيات، كي نترجمها إلى لغتنا العربية. نستهدف بكتبنا الجمهور العريض من القراء والأسر العربية.

المشاركون في الكتاب:

المؤلف: جان فرانسوا كولوزيمو

فيلسوف ولاهوتي أرثوذكسي فرنسي بارز وناشر ومؤرخ. يُعرف بتحليلاته العميقة لتداخل الدين والسياسة في تشكيل الهويات العالمية والصراعات المعاصرة. وُلد في ١٩ نوفمبر ١٩٦٠، بمدينة أفينيون الفرنسية. تلقى تعليمه في مؤسسات أكاديمية مرموقة مثل: جامعة السوربون والمدرسة التطبيقية للدراسات العليا وجامعة أرسطو في سالونيك. كان كولوزيمو أستاذًا جامعيًا في معهد القديس سرجيوس من عام ١٩٩٠ إلى ٢٠١٨، ويشغل حاليًا منصب رئيس المركز الوطني للكتاب منذ عام ٢٠١٠، إلى جانب توليه عدة مناصب في عدد من دور النشر.

من أهم أعماله: صلب أوكرانيا: ألف عام من الحروب الدينية، الدين الفرنسي: ألف عام من العلمانية، التناقض الفارسي: مذكرات إيرانية، نحن أغنياء بفقرائنا، بالإضافة للكتاب الذي بين أيدينا الآن: الغرب: العدو العالمي رقم ١.

المترجم: عبد الرحمن حسين

- مدرس مساعد في قسم اللغة الفرنسية وآدابها، كلية الآداب، جامعة سوهاج.
- وُلِد في نجع زرابي الشيخ، قرية العوكلية، مركز البلينا، محافظة سوهاج. في الثاني من يونيه عام ١٩٩٢.
- حصل على ليسانس الآداب من قسم اللغة الفرنسية في يونيه ٢٠١٤، بتقدير عام جيد جدًا مع مرتبة الشرف.
- حصل على ماجستير الآداب من قسم اللغة الفرنسية، تخصص الترجمة في أكتوبر ٢٠٢٣، بتقدير ممتاز.
- باحث دكتوراة في ذات التخصص منذ أغسطس ٢٠٢٤.

المترجم: محمد جلال

- مدرس في قسم اللغة الفرنسية وآدابها، كلية الآداب، جامعة سوهاج.
- حصل على ليسانس الآداب من قسم اللغة الفرنسية، جامعة سوهاج، في يوليو ٢٠٠٦، بتقدير عام جيد جدًا مع مرتبة الشرف.
- حصل على درجة الماجستير من قسم اللغة الفرنسية، جامعة سوهاج، تخصص اللغويات الفرنسية، في مارس ٢٠١٢، بتقدير جيد جدًا.
- حصل على درجة الدكتوراه المزدوجة من جامعة سوهاج، وجامعة باريس نانتير، تخصص اللغويات الفرنسية، في فبراير ٢٠١٩، بتقدير مرتبة الشرف الأولى.
- له عدد من الدراسات المنشورة محليًا ودوليًا في مجال تخصصه، بالإضافة إلى إشرافه على عدد من الرسائل العلمية.

المحرر: عماد العادلي

- حاصل على ليسانس الآداب قسم الدراسات الفلسفية جامعة عين شمس، وليسانس الحقوق من نفس الجامعة.. وكانت دراساته العليا في تخصص الفلسفة الإسلامية بالمعهد العالي للدراسات الإسلامية بالقاهرة.
- عمل في مجال الصحافة في الفترة من عام ٢٠٠٣ وحتى ٢٠٠٩.
- شغل منصب المستشار الثقافي بمؤسسة "أ" الثقافية في مصر في الفترة من ٢٠٠٩ وحتى ٢٠١٩.
- يشغل منصب المستشار الثقافي ومدير الفعاليات بنقابة أطباء مصر منذ ٢٠٢١ وحتى الآن.

المحتويات

قبل أن تقرأ ١١
أولًا: الخلفية الخطابية للكتاب..... ١٢
ثانيًا: التحيّز البنيوي في فكرة "الخمس إمبراطوريات"..... ١٣
ثالثًا: مفارقة "النقد الذي يعيد إنتاج ما ينتقده" ١٥
رابعًا: اللغة بوصفها أداة إقصاء رمزي ١٦
خامسًا: التناقض بين المنهج التاريخي والسرد الميتافيزيقي ١٨
سادسًا: القيمة التحليلية مقابل الانحياز العاطفي ١٩
سابعًا: كيف يتخفّى الاستشراق في ثوب النقد الحضاري ٢١
ثامنًا: الخلاصات النقدية لفكر كولوزيمو في هذا الكتاب. ٢٢
تاسعًا: القيمة رغم الانحياز ٢٥
ختامًا ٢٦
تقديم ٢٩
الفصل الأول: أُعلنت الحرب **٣١**
انتقام إمبريالي واستعادة دينية ٣٢
شيطنة الخصم ٣٩
عندما يسود الكذب ٤١
لا تستسلم للهاوية ٤٦
درس من التاريخ ٤٩
الفصل الثاني: نشأة الفكرة الإمبراطورية **٥٣**

الخلود الزائل ٥٤
رومانسية القرون ٥٨
بماذا يتميز الإسكندر الأكبر؟ ٦١
روما وأبناؤها المتمردون ٦٦
الفصل الثالث: عصر الذهب والدم ٧١
إمبراطورية التقدم ٧٤
تقسيم العالم ٧٨
عندما تلتهم الحضارة لحوم البشر ٨٠
واشنطن أم موسكو؟ ٨٥
السلام الأمريكي المستحيل ٩٠
فوضى بدلًا من العولمة ٩٤
الفصل الرابع: الغربُ المتوهَّم ٩٧
وداعًا للوحدة! ٩٩
الغرب كملاذ ١٠٣
النهاية المبكرة للمسيحية ١١١
إخضاع المناطق النائية ١١٨
بريطاني للغاية ١٢٢
الاستثناء الفرنسي ١٢٧
ارتياب وتدهور ١٣١
الفصل الخامس: الشرقيون يشنون هجومًا مضادًا ١٣٧
قيصر فصامي ١٣٩

الموت للانكشارية! ١٤٥
الوردة الشائكة للتنظيمات ١٥٠
حاكم مستبد ١٥٥
من القرم إلى الإرهاب ١٦١
عصر العدميين ١٦٧
لعبة سيئة بالنسبة لبلاد فارس ١٧٣
أفيون المستعمر ١٨٢
ملاكمة ضد مدفعية ١٨٧
لا بقرة ولا خنزير ١٩٥
الهندوس والمسلمون ٢٠١
الفصل السادس: نهاية العوالم ٢٠٩
منافسات محاكية ٢١١
العجلة الحمراء ٢١٥
من المذبحة إلى الإبادة الجماعية ٢٢١
الشاه والإمام والقنبلة ٢٢٨
قومية أم شيوعية؟ ٢٣٦
أمة ضد أمة ٢٤٣
الفصل السابع: النزول إلى الهاوية ٢٤٩
جنية الكهرباء ٢٥١
طغاة وشعوب ٢٥٤
ثكنة وسجن وجريمة ٢٥٧

الدولة الإرهابية ٢٦١
عنف وترويض ٢٦٤
بعلزبول في السلطة ٢٦٨
هل من نهاية للدين؟ ٢٧٥
التناقض الياباني ٢٨٣
الفصل الثامن: إعادة التسلح الكبرى ٢٩١
صناعة الأديان ٢٩١
غربي أم أطلسي؟ ٢٩٦
أطلسي أم أمريكي؟ ٣٠٠
انتقام الأصنام ٣٠٤
حرب أبدية ٣١٣
عند أفول الجمهورية الإمبراطورية ٣١٨
مسرح الظلال ٣٢١
وحدة فرنسا ٣٣٠

قبل أن تقرأ

يبدو أن كولوزيمو حين يتحدث في هذا الكتاب لا يقصد مجرد استعادة القوى الشرقية لمكانتها الجيوسياسية، بل يقترح قراءةً رمزية للتاريخ، وكأن العالم يشهد اليوم عودة الأرواح القديمة التي كانت نائمة تحت ركام الحداثة الغربية. فروسيا، وتركيا، وإيران، والصين، والهند، في نظره، ليست مجرد دول صاعدة، بل تجسيد لإرادات حضارية لم تستطع الليبرالية الغربية أن تدمجها في نظامها الكوني. غير أن هذه الرؤية التي تبدو في ظاهرها تحليلًا ديناميًا لتحولات القوة، تكشف عند التمحيص عن نزعة ثقافية خفية لديه، إذ تفترض هذه النزعة وجود جوهرٍ شرقي ثابت، يحرّكه الحنين إلى الإمبراطورية، في مقابل جوهرٍ غربي "عاقل" تجاوز فتنة السلطة واكتفى بالقيادة الأخلاقية أو الفكرية للعالم. هنا تتبدى المفارقة؛ فبينما يدّعي كولوزيمو أنه يقرأ الواقع الجيوسياسي بعين واقعية، فإنه يعيد إنتاج ثنائية كلاسيكية بين شرقٍ تحكمه العاطفة والأسطورة والتاريخ، وغربٍ يتصرّف بعقلانية وتعبٍ حضاري. وإن كان يحاول جاهدًا لإبراز مساوئ التفكير الغربي تجاه الآخر، لا سيما في تلك النظرة الاستعلائية التي جاءت نتيجة صراعات ممتدة نتج عنها بنية مفاهيمية تداخل فيها الدين بشقه الميتافيزيقي مع المصالح الاقتصادية والسياسية، هذه الثنائية ليست بريئة، فهي امتداد لموروث استشراقي عميق يرى في الشرق عالمًا من الغرائز والمجالس الإمبراطورية المتعطّشة للمجد، بينما يصوّر الغرب بوصفه الراشد الذي أدرك عبث القوة وانشغل ببناء قيم إنسانية كونية. لكن هذا التصنيف المبطّن يتجاهل أن ما يسميه "عودة الإمبراطوريات" ليس

سوى رد فعل على التفاوت التاريخي الذي صنعه الغرب نفسه حين فرض نموذجه السياسي والاقتصادي على العالم. فالحركات الروسية أو التركية أو الصينية ليست بالضرورة عودةً إلى الماضي بقدر ما هي بحثٌ عن توازن جديد في عالم فقد مركزه الغربي، وهي استجابات مختلفة لأزمة العولمة الغربية التي لم تعد قادرة على تحقيق وعودها بالمساواة والرخاء. بهذا المعنى، يمكن القول إن "عودة الإمبراطوريات" التي يصفها كولوزيمو ليست انبعاثًا شرقيًا خالصًا، بل عرضٌ من أعراض اهتزاز الغرب ذاته، فحين يتعب المركز، تتحرك الأطراف لتملأ الفراغ، وحين يفقد الغرب يقينه برسالته، يبدو كل آخرٍ وكأنه يستعيد مجده القديم.

أولًا: الخلفية الخطابية للكتاب

يُدرك القارئ منذ السطور الأولى أن كولوزيمو لا يتحدث بلغة الباحث أو المؤرخ المتجرد، بل بلغة أشبه بخطاب نبوئي مليء بالتوتر والرؤى الكونية، كأنه يكتب عن معركة مصير لا عن توازنات سياسية. فحين يستخدم صورًا مثل "الوحش الجائر" أو "التنين الذي استيقظ"، فهو لا يصف بلدانًا أو استراتيجيات، بل يضفي على الأحداث طابعًا أسطوريًا يعيد إلى الأذهان الخيال الأوروبي القديم الذي كان يرى الشرق فضاءً غامضًا، مهددًا، ومفتونًا بالقوة. هذه البلاغة ليست مجرد اختيار أسلوبي، بل تكشف عن خلفية فكرية كاملة تُحوّل التحليل السياسي إلى حكاية رمزية عن صراع الأرواح والحضارات، وتُحوّل الجغرافيا إلى مسرح نفسي تُسقِط عليه أوروبا التاريخية مفاهيمها. فبدل أن يتتبع المؤلف الأسباب البنيوية التي تدفع هذه القوى الشرقية إلى استعادة نفوذها، كالتحولات الاقتصادية، أو فشل النموذج الليبرالي الغربي

في احتواء العالم، يختصر كل ذلك في دوافع نفسية وجماعية: الشرق جسدٌ متعطش للانتقام، والغرب عقلٌ متعب يراجع خطاياه. وهكذا يصبح التاريخ في نظره دراما أخلاقية لا عملية معقدة من التفاعلات الاجتماعية والسياسية. إن هذا النمط من الكتابة يعيد إنتاج الأسطورة الأوروبية القديمة عن "البرابرة" الذين يعودون من الأطراف لغزو المركز المتحضر، وكأن الزمن يدور في حلقة لا تنكسر، وكأن كل يقظة شرقية هي بالضرورة عودة إلى التوحش. من هنا، تنكشف البنية الخطابية العميقة في نص كولوزيمو.. فهو لا يصف عالمًا جديدًا، بل يستدعي خوفًا قديمًا ويمنحه حياة جديدة، مستخدمًا أدوات البلاغة لا من أجل التفسير، بل من أجل تثبيت سردية أوروبية عن الذات والآخر، عن الغرب الذي يخاف من قوته بقدر ما يخاف من زوالها، وعن الشرق الذي لا يُسمح له أن يكون فاعلًا عقلانيًا، بل مجرد استعارة لأشباح التاريخ.

ثانيًا: التحيّز البنيوي في فكرة "الخمس إمبراطوريات"

حين يصوغ كولوزيمو فكرته عن "الإمبراطوريات الخمس" بوصفها قوى عائدة إلى المسرح العالمي، فإنه ينسج خيالًا جيوسياسيًا يطمس التعقيد الواقعي لهذه الدول المختلفة، ويجعل منها كتلة رمزية واحدة تتحرك وفق منطق واحد هو "الحنين الإمبراطوري". هذا الدمج التعسفي بين كيانات متنافرة من حيث النظم والمعتقدات والتجارب التاريخية ليس مجرد اختصار تحليلي مفرط، بل يكشف عن تحيز بنيوي عميق في طريقة التفكير الغربية التي تميل إلى التعامل مع الشرق بوصفه كيانًا موحّدًا تحركه انفعالات جماعية، لا عقلانية تاريخية. فالهند التي تمثل تجربة ديمقراطية فريدة في جنوب

آسيا، لها مشروعها القومي المختلف، ومرجعيتها الحضارية المترسخة في التعدد، لا يمكن أن تُفهم بالمنطق ذاته الذي تُفهم به إيران الثيوقراطية التي تستمد قوتها من سردية دينية شيعية خاصة، ولا الصين التي تقوم على مشروع سلطوي مركزي متجذر في تقاليد الدولة الكونفوشية القديمة، ولا روسيا التي تتحرك وفق هواجس أمنية وإمبراطورية تتعلق بجغرافيتها المفتوحة، ولا تركيا التي تعيش توترًا دائمًا بين إرث عثماني وواقع جمهوري حديث. ومع ذلك، يضعها كولوزيمو جميعًا تحت مظلة واحدة، كأنها فصول مختلفة لأسطورة واحدة عن "الشرق العائد".

بهذه الصياغة، لا يصبح الكتاب تحليلًا سياسيًا لتعدد مراكز القوة، بل إعادة إنتاج لأسطورة ثقافية قديمة ترى في الشرق كائنًا ذا هوية موحدة، مسكونًا بذاكرة المجد الماضي، عاجزًا عن الحداثة إلا بوصفها قناعًا يخفي رغبته في الانتقام من الغرب. إن هذا التماثل الخطابي بين تجارب لا تشترك في شيء سوى موقعها الجغرافي خارج "الغرب"، يكرّس خرافة التجانس الشرقي ويمنح القارئ الغربي وهمًا مريحًا: فكل ما هو غير غربي يمكن أن يُفهم بمنطق واحد، ويُحاصر في إطار نفسي موحد، بينما يحتفظ الغرب لنفسه بامتياز التنوع والتعقيد والتناقض. وبهذا يتحول التحليل الجيوسياسي إلى خطاب ثقافوي مغلق، لا يفسّر الواقع بقدر ما يبرر هيمنة الرؤية الغربية عليه، إذ يُختزل الفعل السياسي الشرقي إلى انعكاس لـ"حلم تاريخي مريض" بالسيطرة، في حين يُبقي الغرب في موقع الحكم الأخلاقي الذي يقرأ العالم من علٍ، مطمئنًا إلى أنه ما يزال المركز الذي يُعرّف الآخرين ويمنحهم المعنى.

ثالثًا: مفارقة "النقد الذي يعيد إنتاج ما ينتقده"

تكمن المفارقة الأشدّ عمقًا في خطاب كولوزيمو في أنه، وهو يسعى إلى نقد الاستعمار الغربي وتفكيك إرثه، ينتهي من حيث لا يدري إلى إعادة إنتاج مركزية الغرب ذاتها التي يتظاهر بمجاوزتها. فهو يعترف، بصدقٍ ظاهري، بأن الغرب هو من صنع "أشباحه الشرقية" عبر قرون من الغزو والاستغلال، وأن العالم غير الغربي لم يعد يقبل بتبعية قديمة. غير أن هذا الاعتراف لا يحرره من البنية الذهنية التي يكتب من داخلها؛ إذ يظل الغرب، في تصوره، هو المرجع الأخلاقي والفاعل المحرك للتاريخ، بينما تُختزل بقية الحضارات إلى موقع ردّ الفعل، كأن وجودها لا يتحقق إلا في لحظة الاحتكاك بالغرب أو المعارضة له. وبذلك تتحول محاولته لتفسير تحولات العالم إلى إعادة سردٍ للرواية الأوروبية ذاتها عن ذاتها وعن الآخرين: الغرب يفكر ويخطئ ويتوب، أما الشرق فلا يفعل سوى أن يغضب أو ينتقم.

في هذه الصياغة، يصبح "الاعتراف بالذنب الاستعماري" شكلاً جديدًا من أشكال الهيمنة الرمزية، لأن المتحدث الغربي يظل هو من يملك حق التقييم الأخلاقي، وهو من يقرر متى يكون الغرب مذنبًا ومتى يكون مصلحًا، بينما تُحرم الحضارات الأخرى من موقع الفاعل القادر على صياغة خطاب بديل أو على تعريف ذاته خارج علاقة التبعية الرمزية. إن ما يسميه كولوزيمو نقدًا يتحول في الحقيقة إلى إعادة إنتاج للنموذج الأبوي ذاته الذي يرى العالم من منظار الغرب، حتى عندما يُدين الغرب. فالغرب، في كتابه، هو الذي يصنع التاريخ ويدفع العالم إلى التفكير في مصيره، أما الآخرون فليسوا سوى مرايا تعكس أزمته أو رغباته أو مخاوفه.

بهذا الشكل، يصبح النقد نفسه جزءًا من المشكلة، لا من الحل، لأنه لا يخرج من النسق الذي ينتقده. فحين يضع كولوزيمو الغرب في موقع "المحكّم" الذي يوزّع الأدوار بين العقل والانفعال، بين النظام والفوضى، فإنه يعيد ترسيخ ثنائية قديمة تبرر الهيمنة الرمزية باسم الوعي والضمير والتقدم. أما الشرق، فيظل في خطابه حقلًا تجريبيًا، ساحةً لصراع الرموز، لا كيانًا فاعلًا يمتلك سرديته الخاصة. وهنا تتجلى المفارقة الكبرى: إن كولوزيمو، وهو يزعم أنه يفضح أوهام التفوق الغربي، ينتهي إلى إعادة إنتاجها في صورة أكثر مكرًا، إذ يضع الغرب مرة أخرى في مركز العالم، لا بوصفه سيدًا سياسيًا، بل بوصفه ضميرًا أخلاقيًا للعالم، في حين يُعاد تدوير الشرق في دور التابع الذي لا يكتمل معناه إلا من خلال نظرة الآخر إليه.

رابعًا: اللغة بوصفها أداة إقصاء رمزي

يكشف تحليل المفردات التي يستخدمها كولوزيمو عن العمق الأيديولوجي الكامن في خطابه أكثر مما يكشف عن أي حيادٍ تحليلي. فحين يصف زعماء الشرق - بوتين وأردوغان وخامنئي وشي ومودي - بأنهم "المبشرون بالفوضى" أو "أباطرة الانتقام"، لا يقدّم توصيفًا سياسيًا بقدر ما يضخ في اللغة شحنة رمزية تستحضر جوّ الطقوس والأساطير، فيجعل الفعل السياسي الشرقي يبدو وكأنه امتداد لعقيدة غامضة أو طقسٍ دينيٍّ متوارث. في المقابل، يُصوَّر الغرب على أنه مساحة العقل والحساب والمساءلة، لا ساحة الشعائر والانفعالات. هذه الثنائية ليست جديدة؛ إنها تكرار شبه حرفي للخطاب الذي ساد منذ القرن التاسع عشر في كتابات المستشرقين، حيث يُقابَل "الشرق الغريزي" بـ"الغرب العقلاني"، و"الوجدان المظلم" بـ"النور

التحليلي". ما يفعله كولوزيمو هنا هو تحديث هذا القاموس دون أن يغيّر منطقه الداخلي: يبدّل أسماء الفاعلين لكنه يُبقي على البنية الرمزية التي تضع الغرب في موقع السيطرة المعرفية، وتضع الشرق في موقع الغموض والتهديد.

حتى حين يُبدي المؤلف إعجابًا ببعض جوانب الصعود الشرقي، فإنه يفعل ذلك بلهجة مراقبٍ يتأمل مخلوقًا خطِرًا قد يُدهشه لكنه لا يثق به، كأن كل إنجازٍ شرقي يحمل في داخله بذرة تهديدٍ حضاري. هذه اللغة المتوترة تُظهر أن كولوزيمو لا ينظر إلى الشرق باعتباره شريكًا في التجربة الإنسانية، بل كـ"آخر" يذكّر الغرب بما حاول نسيانه.. الشغف بالقوة، والرغبة في السيطرة، والتاريخ المجبول بالأسطورة. والأخطر من ذلك أن استعاراته الحيوانية والأسطورية – مثل "التنين" و"الوحش" و"اللعنة" و"الظل" – لا تعمل كصور بلاغية فحسب، بل تؤدي وظيفة أيديولوجية خفية: إنها تُؤسس لخطاب خوفٍ جمعيٍّ يُضفي على الشرق ملامح الخطر الداهم الذي يجب مراقبته أو احتواؤه، تمامًا كما كان يُنظر إليه في الوعي الأوروبي الكلاسيكي بوصفها "تخُومًا" يجب أن تبقى دائمًا خارج الأسوار.

وبذلك، ينزاح الكتاب من مجال التحليل السياسي إلى مجال الأسطرة الثقافية، حيث لا تعود الشعوب والأنظمة والاقتصادات موضوعًا للفهم، بل رموزًا لانفعالات الغرب ذاته، وأقنعةً تعكس قلقه من فقدان موقعه المركزي. فبدل أن يقرأ كولوزيمو التعدد الشرقي بوصفه مظهرًا من مظاهر العالم المتعدد الأقطاب، يعيد تحويله إلى مشهد نفسي يعبّر عن "عودة المكبوت"، أي عن المخاوف الأوروبية القديمة من الآخر الشرقي الذي لا يُفهم إلا

بوصفه تهديدًا. وهكذا، تصبح مفرداته مرآةً أيديولوجية أكثر منها أداةً معرفية، تُعيد ترتيب العلاقة بين الغرب والشرق في إطارٍ من الانفعال والخطر، لا في إطارٍ من الفهم والتبادل الإنساني.

خامسًا: التناقض بين المنهج التاريخي والسرد الميتافيزيقي

يبدو التناقض في مشروع كولوزيمو بين ما يعلنه منهجًا تاريخيًا وبين ما يمارسه فعليًا في النص تناقضًا بنيويًا يكشف عن طبيعة خطابه العميقة؛ فهو يزعم أنه يستند إلى التاريخ المقارن للإمبراطوريات من الإسكندر إلى روما إلى الصين القديمة، لكنه لا يتعامل مع هذا التاريخ بوصفه سلسلة من التجارب المتعددة التي تتشابك فيها المصالح والظروف، بل بوصفه أسطورة كونية تُعيد نفسها بلا انقطاع. فالتاريخ في نصّه يتحوّل من مجال للتنوّع والتحوّل إلى مسرح يعرض دورة أبدية واحدة.. صعود، توسّع، سقوط. هذه الدراما الميتافيزيقية التي يفرضها على حركة التاريخ تُفرغ الوقائع من مادّتها الملموسة وتُحوّلها إلى رموزٍ تخدم رؤية مسبقة للعالم، حيث تُقرأ كل عودة شرقية على أنها عودةٌ محتومة إلى "قدرها الإمبراطوري". وبهذا المنطق، لا يكون الشرق فاعلًا يختار سياساته استنادًا إلى مصالح واقعية أو إلى تحولات بنيوية داخل مجتمعاته، بل كائنًا تحكمه "وراثة تاريخية" تجعله غير قادر على الإفلات من شهوة التوسّع والهيمنة.

هذا التصور الجوهراني للتاريخ - أي الإيمان بأن الأمم تحمل في أعماقها "طابعًا ثابتًا" يحدد سلوكها - هو لبّ الأيديولوجيا العنصرية الحديثة، حتى وإن لم يُصرّح الكاتب بذلك. فالجوهرانية الثقافية تعمل هنا عمل العنصرية المقنّعة: إنها لا تتحدث عن أعراق بيولوجية، بل عن "أرواح

حضارية" ثابتة، لكنها في النهاية تنتج النتيجة ذاتها، أي حرمان الشعوب من إمكانيات التحوّل والتجديد. وهكذا يصبح الغرب في نصّ كولوزيمو كائنًا تاريخيًا متطوّرًا قادرًا على النقد الذاتي والتعلّم من أخطائه، بينما الشرق مجرّد ماضٍ متكرر لا يتعلّم ولا يبدع، بل يعيد إنتاج ذاته تحت أسماء جديدة. هذا التمييز الميتافيزيقي يُعيد تأسيس العلاقة الاستعمارية على مستوى الفكر: فالغرب يملك المستقبل لأنه يتغيّر، والشرق يظل أسير الماضي لأنه يُعاد تعريفه من خلال ذاكرة مغلقة لا فكاك منها.

إن هذا الاستخدام الرمزي للتاريخ لا يضيّق أفق الفهم فحسب، بل يُفرغ التاريخ من معناه الإنساني بوصفه مجالًا للفعل والإبداع. فحين يُختزل التاريخ إلى قانونٍ كونيٍّ صارم، ويُختزل الشرق إلى قدرٍ أبدي، يُلغى المجال الذي يمكن أن تتحقق فيه الحرية السياسية أو الثقافية. ومن ثم، فإن خطاب كولوزيمو، رغم ما يبدو عليه من اتساعٍ في المراجع التاريخية، ينتهي إلى نقيض ما يدّعيه: لا إلى قراءة تعددية لتجارب الإمبراطوريات، بل إلى حكاية ميتافيزيقية تُكرّس التفاوت الوجودي بين الغرب والشرق، وتجعل من التاريخ نفسه أداةً في خدمة السردية الغربية عن تفوقها الدائم بوصفها الجهة الوحيدة القادرة على التغيير والتجدد.

سادسًا: القيمة التحليلية مقابل الانحياز العاطفي

يبلغ كتاب كولوزيمو ذروة قوته في لغته، لا في تحليله، إذ لا يمكن إنكار أن المؤلف يمتلك قدرة استثنائية على تركيب الأفكار ضمن صورٍ كثيفةٍ ومشحونة، وأنه ينجح في رسم بانوراما فكرية واسعة تجمع بين الأسطورة والسياسة، بين الجغرافيا والوجدان، في قراءة تبدو للوهلة الأولى شاملة

ومعمقة. غير أن هذه البراعة اللغوية التي تمنح النصّ جاذبيته تتحول في مواضع كثيرة إلى غلالة بلاغية تخفي هشاشة التحليل البنيوي، فكلما اقترب الكاتب من تفصيل الوقائع أو تفسير الحركات الاجتماعية والاقتصادية التي تصنع السياسات الدولية، انزلق إلى خطابٍ أخلاقي متوتر يضع العالم في معادلات تبشيرية مبسطة: خيرٌ يقابله شرّ، ماضٍ يقف في مواجهة مستقبل، حريةٌ تتحدى طغيانًا. هذا الميل إلى الدراما الأخلاقية يجعل من النصّ أقرب إلى عظةٍ فكرية أو "بيانٍ نبوئي" منه إلى بحثٍ تحليلي يستند إلى أدوات علم الاجتماع أو الاقتصاد السياسي. فالكاتب، بدل أن يسأل لماذا تتغيّر موازين القوة في النظام الدولي، أو كيف تعيد العولمة إنتاج تفاوتاتها، يفضّل أن يصوغ المشهد بلغة الخلاص واللعنة، كأن التاريخ نفسه محكوم بثنائية أخلاقية لا فكاك منها.

هذا الانزلاق من التحليل إلى التمثيل الأخلاقي هو ما يفقد النصّ توازنه المعرفي، لأن القيمة التحليلية تُستبدل بالانفعال، والمعطى الواقعي يُختزل في الرمز، والوقائع تتحول إلى مشاهد مسرحية تمثّل الصراع الأزلي بين الغرب "الواعي" والشرق "المفتون". وبذلك، فإن ما يظهر أحيانًا في الكتاب من نبرةٍ عنصرية أو استعلائية لا ينبع بالضرورة من كراهية عرقية صريحة، بل من تحيّزٍ معرفي بنيوي يرى العالم من زاويةٍ واحدة: الزاوية الأوروبية التي تضع نفسها في مركز التاريخ وتعتبر الآخرين مجرد أصداء لذلك المركز. هذا التحيز لا يتجلّى فقط في اختيار المفردات أو الصور، بل في بنية التفكير ذاتها التي تجعل من الغرب مرجعًا كونيًا، ومن بقية العالم تجلياتٍ لخياراته أو أخطائه. وهنا تنكشف المفارقة الكبرى في خطاب كولوزيمو: إنه يملك عينًا نقدية حادة قادرة على التقاط تناقضات الغرب ومآزقه، لكنه لا يمتلك

الشجاعة المعرفية الكافية ليتخيل عالمًا بلا مركز غربي، عالمًا تتوزع فيه الشرعية الفكرية كما تتوزع القوة السياسية. لذلك تبقى القيمة الفكرية لكتابه مشروطة بحدود رؤيته؛ فهي لامعة في أسلوبها، مثيرة في صورها، لكنها محكومة بانحيازٍ عاطفي يجعلها أقرب إلى مرثيةٍ عن انحسار الغرب منها إلى تحليلٍ فعليٍّ للعالم ما بعد الغربي.

سابعًا: كيف يتخفّى الاستشراق في ثوب النقد الحضاري

يتجلّى في خطاب كولوزيمو ما يمكن تسميته بـ"الاستشراق المتخفي"؛ ذلك الشكل المعاصر من التفكير الذي لم يعد يعلن صراحةً تفوّق الغرب أو دونية الشرق، كما كان يفعل الخطاب الكلاسيكي في القرن التاسع عشر، بل يقدّم نفسه في ثوبٍ نقديٍّ رصين، يستخدم مفردات مثل "الحضارة"، و"الهوية"، و"المعنى الإنساني"، و"نقد المركزية الغربية". غير أن هذا الثوب الأخلاقي لا يُلغي جوهر الرؤية القديمة، بل يعيد إنتاجها بطرائق أكثر مكرًا ونعومة. فكولوزيمو، وهو يرفض الاستعمار ويدين عنف الماضي الأوروبي، يظل مؤمنًا – من حيث لا يشعر – بأنّ العالم لا يمكن أن يتحرك خارج الإحداثيات التي رسمها الغرب، وأنّ أي محاولةٍ شرقيةٍ للخروج من هذا المدار محكوم عليها بأن تنتهي إلى "استبداد جديد" أو "كارثة حضارية". بهذا التصور، تُصبح مقاومة الشرق للهيمنة الغربية مجرّد انفعالٍ غريزيٍّ لا عقلاني، كما كان يراها الخطاب الاستشراقي القديم، لا فعلًا تاريخيًا مشروعًا يسعى إلى بناء نماذج بديلة للحداثة أو للسيادة السياسية.

إن ما يجعل هذا النمط من التفكير أكثر خطورة من الاستشراق الصريح هو أنه يقدّم نفسه كـ"نقد للغرب من داخل الغرب"، فيكتسب بذلك مصداقية

أخلاقية تخفي بنيته التراتبية. فحين يقول كولوزيمو إن "الاستعمار القديم خلق الأشباح التي تطارده اليوم"، يبدو كأنه يحمّل الغرب مسؤولية الماضي، لكنه في الحقيقة يحتفظ للغرب بدور المعلّم الذي يتأمل أخطاءه ويُعيد العالم إلى توازنه، بينما تُقدَّم شعوب الشرق كقوى انفعالية لا تعرف سوى الردّ الغاضب. هنا لا تكون العنصرية في الكلمات المعلَنة، بل في البنية الضمنية المُضمرة وراء تلك الكلمات، والتي تُحدّد من يملك القدرة على التفكير ومن يُحكم عليه بالفعل دون وعيٍ أو قصد. الغرب، في هذا الخطاب، يخطئ بعقلٍ واعٍ ثم يُصحّح مساره، أما الشرق فينحرف بطبيعته، ويحتاج دائمًا إلى "تقويم" يأتيه من الخارج.

وهكذا يتخفّى الاستشراق في ثوب النقد الحضاري، فيقدّم نفسه كمرافعة إنسانية ضد التطرّف والهيمنة، لكنه في العمق يعيد توزيع الأدوار القديمة ذاتها: الغرب ضمير العالم، والشرق مادته الخام، الغرب هو الأفق الذي تُقاس عليه الإنسانية، والشرق هو الميدان الذي يُختبر فيه هذا الأفق. ومن ثم، فإن خطاب كولوزيمو، رغم مظهره النقدي، يرسّخ ما كان يفترض أنه يُفكّكه، إذ يُعيد بناء العلاقة بين الشرق والغرب على قاعدة التفوق الأخلاقي والمعرفي ذاتها، ولكن بوسائل لغوية أكثر تهذيبًا وبلونٍ ثقافيٍّ معاصر يُخفي سلطته وراء قناع "التحليل الحضاري".

ثامنًا: الخلاصات النقدية لفكر كولوزيمو في هذا الكتاب

– تتجسد في الخلاصات النقدية لفكر كولوزيمو ملامح خطابٍ يبدو في ظاهره تحليلًا حضاريًا متوازنًا، لكنه في عمقه استمرارٌ لمركزيةٍ معرفية غربية

لم تتخلّ بعد عن موقعها المهيمن في تفسير العالم. فحين يكتب كولوزيمو عن التحولات الكبرى في السياسة الدولية، يظل المنظور الذي يحكم رؤيته هو منظور باريس، لا طهران، أو بكين، أو دلهي، أو موسكو. العالم يُقرأ كما لو أنه مشهد يمرّ أمام عينٍ أوروبية عليا تراقب وتصنّف وتفسّر، حتى حين يكون موضوعها هو "عودة الشرق". هذه الرؤية لا تُنتج معرفة متعددة، بل تعيد تدوير خريطةٍ فكرية قديمة تُقسّم العالم إلى مركزٍ يفكر وأطرافٍ يُفكَّر عنها. فالشرق في كتابه لا يتكلم، بل يُتكلَّم عليه؛ لا يقدّم خطابه الخاص، بل يُقدَّم كموضوعٍ للدرس والتأمل. ومن اللافت أن النصّ، رغم كثافة مراجعِه وتنوّع إشاراته التاريخية، يخلو من أي حضورٍ حقيقي لأصواتٍ شرقيةٍ معاصرة: لا مفكرين هنود، أو إيرانيين، أو صينيين، أو أتراك يتحدثون من داخل تجاربهم، بل مجرد صور رمزية أو "نماذج نفسية" يتداولها الراوي الأوروبي في لغةٍ مشحونةٍ بالتأمل الأخلاقي وفق المفهوم الغربي.

- إن اللغة البلاغية التي يتقنها كولوزيمو تتحوّل إلى أداةٍ أيديولوجيةٍ في حدّ ذاتها؛ فهي لا تُستعمل فقط لتجميل السرد أو لخلق متعة أدبية، بل لتوجيه الوعي نحو تصورٍ محددٍ للعالم. فحين يصوّر الشرق في هيئة "تنينٍ"، أو "كاهنٍ"، أو "ظلٍّ ينتقم"، فإن هذه الصور تُغلق المجال أمام رؤية الشرق كفاعلٍ عقلانيٍّ في السياسة والاقتصاد، وتحوّله إلى كيانٍ أسطوريٍّ تحكمه الغرائز والماضي. إن هذا التشكيل البلاغي لا يترك مساحةً للفهم أو الحوار، بل يرسّخ فكرة أن العالم غير الغربي تحكمه قوى نفسية وغيبية، لا مصالح تاريخية أو بنى اجتماعية قابلة للتحليل. وهكذا تتراجع الجغرافيا السياسية

لصالح مسرحٍ رمزيٍّ تُدار فيه المعارك بين "العقل الغربي" و"الوجدان الشرقي"، وهو ما يُعيدنا إلى قلب المنظومة الاستشراقية التي تفسّر السياسة بالخيال، لا بالواقع.

– ومن مظاهر هذا الانحراف أيضًا أن كولوزيمو يستبدل التحليل البنيوي بالتحليل النفسي، فيتحدث عن "هوسٍ بالغرب" أو "عقدة المجد" أو "انتقامٍ تاريخي"، وكأن العلاقات الدولية مشهدٌ من علم النفس الجماعي لا من الاقتصاد والسياسة. بهذا الانزلاق، تتحوّل القوى الشرقية إلى مرضى رمزيين، وتتحوّل أفعالهم إلى أعراض، بينما يحتفظ الغرب بدور الطبيب الذي يشخّص ويشرح ويُحذّر. إن هذا النمط من التفكير – وإن جاء في لغةٍ متسامحة – يحمل في طياته بنية عنصرية ناعمة، لأنها تُنكر على الآخر حقّه في الفاعلية العقلانية، وتجعله موضوعًا للتفسير لا ذاتًا قادرة على التفسير.

– لهذا، فإن ما قد يشعر به القارئ العربي أو الآسيوي من "رائحة عنصرية" في الكتاب ليس حساسية مفرطة ولا إساءة تأويل، بل إدراكٌ فطريٌّ بأن اللغة، مهما ادّعت التعاطف، تُخفي سلطةً قديمة: سلطة الغرب في تسمية العالم وتحديد معناه. فحين يُختزل الشرق في رموزٍ غامضةٍ أو أوصافٍ انفعالية، تُعاد صياغة العلاقة بين الحضارات على نحوٍ غير متكافئ؛ الغرب يتحدث بضمير المفكر، والشرق يُقدَّم كحالةٍ تحتاج إلى تفسير. إن القيمة الحقيقية لأي نقدٍ حضاري لا تتجلى في بلاغته أو في قوّة استعاراته، بل في قدرته على تفكيك هذه البنية المركزية التي ما زالت تجعل من الغرب نقطة البدء والنهاية في التفكير بالعالم. وكولوزيمو، رغم وعيه ببعض جوانب هذه الإشكالية،

يظل أسيرها، فينتج خطابًا لامعًا في شكله، لكنه مأزوم في مضمونه، يمدح العقل الغربي حتى وهو ينعاه، ويُدين الاستشراق وهو يكتبه من جديد بلغةٍ أكثر تهذيبًا وأناقة.

تاسعًا: القيمة رغم الانحياز

رغم كل التحفظات النقدية على كتاب كولوزيمو، لا يمكن تجاهل أن مؤلفه يقدّم مادة غنية تستحق الانتباه، فرغم أنها لا تشرح الواقع الشرقي بموضوعية كاملة، إلا أنها تُتيح نافذة على العقلية الغربية المعاصرة. فالمؤلف مفكر واسع الاطلاع، يملك قدرة على المزج بين التاريخ والسياسة والثقافة، ويستطيع أن يصور قلق الغرب من تراجع مركزيته بطريقة تجعل القارئ يشعر بعُمق هذا القلق، حتى لو جاء ذلك عبر صور بلاغية مبالغ فيها أو رموز أسطورية. قراءة الكتاب بمنظور "وثيقة ثقافية" تكشف لنا كيف ينظر الغرب إلى نفسه وإلى الشرق، كيف يحلل المخاطر، وكيف يصوغ الحوادث الدولية في إطار أخلاقي وانفعالي قبل أن يكون تحليليًا.

وبالتالي، قيمة الكتاب لا تكمن في قدرته على تقديم خارطة دقيقة للإمبراطوريات الشرقية أو تفسير ديناميات السياسة العالمية، بل في كونه مرآة تكشف عن صورة الغرب لنفسه وعن رؤيته للعالم الذي يراه يغير موضعه بالنسبة له. هو يعكس أسئلة وجودية عن فقدان النفوذ، عن العلاقة بين التاريخ والهوية، وعن المخاطر المحتملة على المركزية الغربية، ويضع هذه الأسئلة في سرد مشحون بالرموز واللغة البلاغية، ما يجعله مادة مثيرة للتأمل في التاريخ الفكري والثقافي للغرب الحديث. ومن هذا المنطلق، يمكن اعتباره قراءة ضرورية لكل من يريد فهم القلق الغربي المعاصر، أو دراسة كيفية إنتاج

المعرفة عن الآخر بطريقة تظل مشبعة بالانحياز العميق، لكنها لا تزال تحمل قيمة معرفية بوصفها وثيقة تعكس مخاوف وصورًا ذهنية أكثر مما تعكس وقائع دقيقة عن القوى غير الغربية.

ختامًا

– يمكن النظر إلى الكتاب باعتباره نص متعدد الطبقات، يجمع بين السرد التاريخي والتأمل السياسي والتحليل الثقافي، لكنه يفعل ذلك من منظور غربي صارم يجعل الشرق دائمًا موضوعًا للملاحظة والتفسير، لا فاعلًا مستقلاً قادرًا على تشكيل مساره الخاص. بمهارة أدبية ملحوظة، ينجح كولوزيمو في صياغة سرد متماسك يجمع بين التاريخ القديم والصراعات الحديثة، لكنه يختار رؤية العالم من موقع مهيمن، حيث يُصبح الشرق مرآة للقلق الغربي والخوف من فقدان السلطة، بينما يُصوَّر الغرب كمحور العقل والحكمة. هذا الاختيار لا يعكس مجرد تصورات مسبقة، بل هو جزء من خطاب طويل الأمد يربط بين المعرفة والقوة، ويستمر في إعادة إنتاج مركزية الغرب بطريقة أكثر تهذيبًا وأقل صراحة من خطاب الاستشراق التقليدي.

– الأهمية الجوهرية للكتاب تكمن في أنه يتيح نافذة فريدة لفهم طريقة تفكير الغرب في نفسه وفي علاقته بالآخر، إذ يُظهر كيف يمكن للمخاوف من تراجع النفوذ أو التغيرات العالمية أن تُحوَّل إلى سرد رمزي يمزج بين الأسطورة والتاريخ والتحليل النفسي. ففي هذا النص، تُستبدل الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية الدقيقة بسرد عن "الهوية"، و"الهوس"، و"الانتقام"، ما يجعل الصراعات الدولية تبدو نتيجة لعوامل رمزية داخلية أكثر من كونها

انعكاسات لمصالح سياسية أو اقتصادية ملموسة. وهنا تكمن قيمة الكتاب الحقيقية كمادة نقدية: فهو يتيح للباحثين والقراء فرصة دراسة الطرق التي تُصوَّر بها القوى الأخرى في الخطاب الغربي المعاصر، وكيف تتحول المعرفة إلى أداة لإعادة إنتاج المواقف التاريخية للمركز، حتى وإن تغيرت لغة التحليل أو الأسلوب البلاغي.

– وبالإضافة إلى ذلك، يُظهر النص كيف يمكن للبلاغة والأسلوب الأدبي أن يكمّلا المعنى السياسي ويصبحا جزءًا من المنظومة الأيديولوجية نفسها. فالصور الرمزية المستعارة من الأساطير والحيوانات، حيث لا تعمل اللغة على تبسيط الواقع فقط، بل تعيد تشكيله بحيث يصبح الشرق كيانًا مشحونًا بالعاطفة والخطر، بينما يُعرض الغرب كحامل للعقلانية والمعايير العالمية. وهكذا، يتحول النص إلى مرآة مزدوجة: يعكس صورة الغرب عن نفسه ويعكس صورته عن الآخر في آن واحد، ويحوّل السياسة إلى مسرح رمزي تتحكم فيه القوى الداخلية للعواطف والخرافات الجماعية أكثر من القوى المادية والمصالح الواقعية.

– القراءة النقدية للكتاب تكشف أن قيمته الأساسية ليست في دقته التحليلية أو موضوعيته تجاه الشرق، بل في قدرته على كشف أطر التفكير الغربية المعاصرة، والمخاوف التاريخية التي ما تزال تحدد طريقة النظر إلى العالم. إنه نص يعلّمنا كيف يمكن للمعرفة أن تكون مشحونة بالسلطة، وكيف أن محاولة فهم "الآخر" من خارج لغته وثقافته تحمل دائمًا خطر التحريف وإعادة إنتاج المواقف المهيمنة. ومن هذا المنظور، يصبح الكتاب وثيقة ثمينة لفهم الذات الغربية، لا كخريطة دقيقة للشرق أو قراءة

علمية للإمبراطوريات الناشئة، بل كمرآة تكشف عن الوسائل الرمزية التي من خلالها يفسر الغرب العالم، ويعيد ترتيب الواقع بما يضمن استمرار موقعه المركزي في تصوراته عن التاريخ والسياسة والحضارة.